المبحث الأول

المكان والغزل

الغزل من الأغراض الشعرية المحببة إلى النفس، فهو يصور أشواق المحبين ولواعجهم، ولم يحفل العرب بشيء احتفالهم بالغزل، وهو من أصدق أنواع الشعر عاطفة، صور فيه الشعراء أشواقهم وإحساساتهم نحو المرأة تصويرا للنفوس وكشفا لدواخلها [١].

والشاعر العربي رأى ((أن المرأة هي جماع مظاهر الجمال وصوره فهو لا يشهد غيرها في حياته الرئيسية وهي تكاد تكون لذلك محور اهتماماته النفسية ووثباته العاطفية)) [٢]. وكان الغزل اللغة الناطقة لاستمالة تلك المرأة وجذب عواطفها.

ويمكن القول إن الأندلس قد ازدهر فيها شعر الغزل وكان مرده إلى البيئة الأندلسية ((حيث امتزج العرب بسكان الجزيرة الأندلسية وعاشوا حياة حضرية ناعمة أغرتهم بشتى وسائل اللهو والمجون وحررتهم من كثير من الأغلال والتقاليد الموروثة ثم إن الأندلس كان لها حظ كبير من الجمال البشري كحظ بيئتها من الجمال الطبيعي، مما استرعى أنظار العرب ونبه عواطفهم)) [٣].

فقد جسد المكان فاعليته في الغزل بكونه المدخل الأساس الذي يلج من خلاله الشاعر، كي يظهر المكونات الخفية التي تختلج في نفسه فأصبح جزء من الغزل وسببا من أسباب وجوده، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة (ت:٢٧٦هـ) بقوله: ((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها

(١) ينظر: الغزل في العصر الجاهلي، محمد أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، (د.ت)، المقدمة، ٦.
(٢) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٧٨.
(٣) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٠م، ١٩٤-١٩٥.

الضاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد، وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق نحو القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء)) (١) وذهب إلى ذات المعنى أبو هلال العسكري (ت:٣٥٩هـ) بقوله: ((كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها)) (٢) فذكر هذه الأماكن لم يأت اعتباطا بل كان نابعا من صميم الشعراء فهي أماكن الأهل والأحبة ((هذه العلاقة بين الإنسان والمكان تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل، إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفز في الإنسان خصائصه وملامحه فإنه ينحفر – المكان – بالإنسان وفعالياته المستمرة)) (٣).

وإذا ما نظرنا إلى المطالع الشعرية فإننا سوف نجد ذكر الديار والأطلال الدارسة صفة غالبة على هذه المطالع والسبب في ذلك هو لجوء الشاعر إلى هذه الأمكنة ((ليتخذ منها وسيلة تذكره بحبيبته، أو وسيلة تساعده على التعبير عن ألم الفراق والصدود وخاصة عندما يتعرض لوصف الديار القفراء)) (٤).

إذا ما عاد الأمر خافيا فإن هذه الأماكن تجمع ((بين عنصرين أحدهما يذكر بالفناء ... والآخر يذكر بالحب)) (٥).

وبما أن ظاهرة المكان معروفة في الشعر العربي، فإن للشعر الأندلسي نصيبا من هذه الظاهرة، وربما كان لهم النصيب الأكبر من هذه الظاهرة والسبب في ذلك يعود إلى البيئة الأندلسية وما ضمت في حناياها من جمال طبيعي، فلهم في الغزل

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م، ٧٤/١-٧٥.
(٢) الصناعتين – الكتابة والشعر -، لأبي الهلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٩٥٢م: ٤٥٢.
(٣) شعرية المكان في الرواية الجديدة، ٦٣-٦٤.
(٤) المطلع التقليدي في القصيدة العربية، دراسة ونقد وتحليل، تأليف: عدنان عبد الذبي البلداوي، تقديم: د. إبراهيم السامرائي، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٤م، ١٤.
(٥) روح العصر، دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة، عز الدين إسماعيل، بيروت، ١٩٧٨م، ٢٠.

شعر جميل ومؤثر ((فقد كان ينساب على شفاه الشعراء الأندلسيين انسيابا لأسباب كثيرة منها اختلاط الرجال بالنساء وإطلاق الحرية الفردية مضافا إلى ذلك جمال الطبيعة الأندلسية)) (١).

وإذا كان الدكتور باقر سماكة وضع جمال الطبيعة الأندلسية في موضع الإضافة فإنني أضعها في موضع الصدارة في إثارة الشعراء وتحريك مشاعرهم في قول الغزل ((فقد يتغزل الشعراء الأندلسيون متشوقين إلى أحبتهم فتعن لهم أيام اللقاء بالأندلس وينقطعون عن الغزل إلى وصف مواضع اللقاء بأحبائهم الهاجرين وقد يصف عاشقهم حبيبة مستعيرا له صورة جنة مختلفة الأزهار فتكون الطبيعة حينذاك متكأ في غرضهم الشعري)) (٢).

وكان للشاعر الأندلسي تجربته التي عانى فيها من بعد ديار المحبوبة وبكاءه نأي الأحبة ووقوفه على أطلالهم فهذا الغزال (ت:٢٥٠هـ) يصب لنا تجربته المعاشة في تجربته الأدبية فيخرج لنا أبياتا نلمس فيها روح الفراق ولوعة الاشتياق وهي تعرج على المكان مضمونا ودلالة يقول:

ريع قلبي لما ذكرت الديارا ... وتنورت بالنخيلات نارا
وازدهتني ذات السنا ببروق ... من لظاها فما أطيق اصطبارا
والقريح الفؤاد يزداد للنا ... ر وميض السعير منها استعارا (٣)

فقرن ريع القلب بذكر الديار واستخدم معاني الشوق والوجد وعدم الصبر على ذلك وجميع هذه المعاني تنبئ بمرارة الحزن ولوعة الفراق وشدة المعاناة.

ومن هذه المعاني ما ذهب إليه ابن عبد ربه (ت:٣٢٨هـ) ((قدوة شعراء الأندلس

(١) التجديد في الأدب الأندلس، د. باقر سماكة، مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧١م، ٤١.
(٢) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، د. هدى شوكت بهنام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م، ١٣٢.
(٣) ديوان يحيى بن حكم الغزال، حققه وشرحه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ٧٢.

وأدبائها)) [١] في قوله:

والـــــدار بعـــــدهم مقســـــمة ... بـــين الريـــاح وهـــاتن الـــودق
درج الزمـــان علـــى معارفهـــا ... كمـــدارج الأقـــلام فـــي الـــرق
لـــم يبـــق منهـــا غيـــر أرمـــدة ... لبـــدن بـــين خوالـــد ورق
وســـطور إنـــاء بعقوتهـــا ... محنـــوة كأهلـــة المحـــق [٢]

إنه وصف حزين لدار الحبيبة، فهو بحق القول ((وطن مكاني مفقود)) [٣].

لقد أصبح المكان ((مستودعا لهذه الذكريات يظل يوحي للإنسان بالعقل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية التي تعيد توازنه النفسي في حالة فقدان ذكرياته مع المرأة)) [٤] ويبدو ((أن شعر هذه الفترة لم يستقل استقلالا تاما عن شعر المشارقة ولم يتأثر بعد بطبيعة الأندلس الفاتنة)) [٥] وهذا ما نلمسه في مقطوعة لإسماعيل بن عبد الرحمن القرشي [٦] فقد ابتدأها بكلمة (خليلي) وهي كلمة عادة ما افتتح بها المقدمات التقليدية عند المشارقة وذكر ديارهم حيث قال:

خليلـــي هـــل ليلـــى ونجـــد كعهـــدنا ... فيـــا حبـــذا ليلـــى ويـــا حبـــذا نجـــد
عســـى الـــدهر أن يقضـــي لنـــا ... فيـــا رب قـــرب يجـــدده بعـــد [٧]

(١) رايات المبرزين وغايات المميزين، لابن سعيد الأندلسي، تح: د. النعمان عبد المتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٣م، ٧٧.
(٢) ديوان ابن عبد ربه، حققه وجمعه وشرحه: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ١٢٠-١٢١.
(٣) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، نوري حمودي القيسي، دار الكتب، الموصل، ١٩٧٤م، ١٠.
(٤) جماليات المكان في شعر عرار، ١٩٧.
(٥) الأدب العربي في الأندلس تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه، د. علي محمد سلامة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٩م، ٩٧.
(٦) إسماعيل بن عبد الرحمن بن علي القرشي رحل من مصر إلى الأندلس في زمن السلطان الحاكم المستنصر بالله عام (٣٦٠هـ). ينظر: نفح الطيب، ٦٩/٣.
(٧) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني (ت:١٠٤١هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ٧٠/٣.

ومن شعراء هذه الحقبة ابن هانئ الأندلسي (ت:٣٦٢هـ) الذي قيل عنه: ((ليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة)) [١] ومن جميل شعره قوله في مدح يحيى بن علي الأندلسي [٢]:

فتكات طرفك أم سيوف أبيك ... وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر ؟ ... ما أنت راحمة ولا أهلوك
يا بنت ذا السيف الطويل نجاده ... أكذ يجوز الحكم في ناديك
قد كان يدعوني خيالك طارقا ... حتى دعاني بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعدنا وفي ... وادي الكرى نلقاك أو واديك
منعوك من سنة الكرى وسروا، فلو ... عثروا بطيف طارق ظنوك [٣]

هذه الأبيات ابتدأها بمعاني التشبيب واصفا جمال الحبيبة بأسلوب استفهامي، الغرض منه جلب انتباه المتلقي واستعار جمال العيون من الفتك والسيوف وطيب الريق من مراشف الخمر. وضمن هذه الأبيات ألفاظا مكانية اقترنت بهذا الغزل منها ((ناديك، وادي الكرى)) و هذه الأمكنة سواء أكانت حقيقة أم خيالا فإنها مرتبطة بذكريات هذا الشاعر فهو يسأل عن اللقاء بمعشوقته، والوادي في هذه الأبيات له دلالة إشارية تدل على احتواء هذا المكان على مشاعر وجدانية عشقية ولجأ الشاعر إلى استخدام قافية كاف المخاطب المكسورة ليؤكد صفة الخطاب في النص.

ولابن هانئ قصيدة أخرى يرتبط فيها المكان بالزمان، فالزمن متمثل بالماضي والمكان متمثل بالديار التي قضى فيها أيام الصبا فيذكر عددا من الألفاظ المكانية التي

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ٥/٣.
(٢) يحيى بن علي الأندلسي يرجع نسبه إلى عبد الحميد الجذامي أول من دخل الأندلس من أهل الشام وفد على المستنصر ثم عاد إلى المغرب. ينظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المكراشي، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وأليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ٢٤٩/٢-٢٧٩.
(٣) ديوان ابن هانئ، تحقيق وشرح: كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٢م، ٢٦٤.

لها وقع في نفسه والتي أثارت الشجون وحركت المشاعر عند المرور بها ومنها ((منعج، الأطلال، الدار، الوادي)) وكل هذه الأمكنة مرتبطة بالحبيبة أي أنه عبر عن هذه الديار وما آلت إليه بعد الفراق بعاطفة صادقة ومشاعر حزينة، موظفا لها موسيقى بحر الكامل مع قافية اللام المضموم. فقال:

ولقد مررت على الديار بمنعج ... وبها الذي بي غير أني السائل
فتوافق الطللان هذا دارس ... في بردتي عصب وهذا ماثل
فمحا معالم ذا نجيع سافك ... ومحا معالم ذا ملث وابل
يا دار أشبهت المها فيك المها ... والسرب إلا أنهن مطافل
نضحت جوانحك الرياح بلؤلؤ ... للطل فيه ردع مسك جائل
وغدت بجيب فيك شقوق، لها ... نفس تردده ودمع هامل
هلا كعهدك والأراك أرائك ... والأثل بان والطلول خمائل
إذ ذلك الوادي قنا وأسنة ... وإذا الديار مشاهد ومحافل [1]

فتشارك الشاعر مع الديار في مشاعر الحزن والبعد فالديار حزينة، لفراق أهلها كحزن الشاعر على فراقهم، فالأطلال عفت آثارها بسفك الدم وسيل المطر ثم يوجه الخطاب لدار الحبيبة (هلا كعهدك) ويتذكر الزمان الماضي حين كان الأراك كالأسرة وآثار الديار كالرياض الزاهرة وحين كان ذلك الوادي عامرا بأهله [2]، وارتبطت هذه الأماكن بما تثيره من عواطف ((بحياة الإنسان العربي ارتباطا مصيريا، لأنها ملازمة له ملازمة الظل، وجعلته موقنا بالصلة الأزلية التي تشد بين الإنسان وأرضه)) [3]، لتشكل باعثا موضوعيا لموقف الشاعر الذي لا يتأتى إلا من خلال معاناة ذاتية يمتزج فيها الحدث بالإحساس والواقع بالأمل هذا الباعث

(١) ديوان ابن هانئ: ٢٦٩، منعج: اسم وادي، الماثل: الرسم الذاهب أثره.
(٢) ينظر: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هاني، د. زاهد علي، مطبعة المعارف، مصر، ١٣٥٢ هـ، ٦٣٢-٦٣٣.
(٣) الشعر والتاريخ، د. نوري حمود القيسي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م، ٣٢-٣٣.

الموضوعي يكون ذا قدرة تأثيرية تعبر عن تقرير إيحائي لتجربة موضوعية للتعايش بين الشاعر والمكان.

وللشاعر نفسه قصائد أخرى اتخذ فيها المكان نقطة بداية للطريق في قول الغزل ومنها:

قفا فلأمر ما سرينا وما نسري ... وإلا فمشيا مثل مشي القطا الكدري
قفا نتبين أين ذا البرق منهم ... ومن أين تسري الريح عاطرة النثر
لعل ثرى الوادي الذي كنت مرة ... أزورهم فيه تضوع للسفر
وإلا فذا واد يسيل بعنبر ... وإلا فما تدري الركاب ولا ندري
أكل كناس، في الصريم تظنه ... كناس الظباء الدعج والشدن العفر
فهل علموا أني أسير بأرضهم ... وما لي بها، غير التعسف من خبر
ومن عجب أني أسائل عنهم ... وهم بين أحناء الجوانح والصدر
ولي سكن تأتي الحوادث دونه ... فيبعد عن عيني ويقرب من فكري
إذا ذكرته النفس جاشت لذكره ... كما عثر الساقي بكأس من الخمر
ولم يبق لي إلا حشاشة مغرم ... طوى نفس الرمضاء في خلل الجمر
وما زلت ترميني الليالي بنبلها ... وأرمي الليالي بالتجلد والصبر [1]

ابتدأ ابن هانئ هذه الأبيات بفعل الأمر (قفا) طالبا من صاحبيه الوقوف على ديار الحبيبة – ونرى من هذه المقدمة تأثر شعراء الأندلس بشعر المشارقة – فهو الأمر الذي سروا من أجله وإذا تعذر الوقوف فالمشي البطيء المتثاقل (مشي القطا) أفضل، لأنهم وصلوا إلى الأمر المطلوب وهو ديار الأحبة إلا أن الشاعر يقف متصبرا في التعرف على دار الحبيبة فقد غيرت الليالي معالمها وأذهبت أنوارها، ويصور لنا الحالة النفسية التي يمر بها هذه الحالة جعلته يشرف على الهلاك فلم يبق

(١) ديوان ابن هانئ، ٢١٤-٢١٥، الصريم: الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر، الدعج: الواحدة دعجاء: السوداء العين، الشدن، الواحد شادن: ولد الظبي.

في جسده إلا ذلك الرمق وتكاد تقضي عليه حرارة الحزن في صدره، فالطلل حالة وليس مجرد بقايا آثار واستنطاقها حالة إنسانية وسببه الإنسان المشتاق إلى زمن ماض كامن في ذاكرته.

ولابن هانئ أبيات أخرى تنبئ عن علاقة المكان وأثره في قول الغزل حيث يقول:

قد مررنا على مغانيك تلك ... فرأينا فيها مشابهة منك
عارضتنا المها الخواذل أسرا ... بأجراعها فلم نسل عنك
لا يرع للمها بدارك سرب ... فلقد أشبهتك إن لم تكنك
مسعدي، عج فقد رأيت معاجي ... يوم أبكي على الديار وتبكي
بحنين مرجع كحنيني ... وتشاك مردد كتشكي
فاتئد تسكب الدموع كسكبي ... ثم لا تسفك الدماء كسفكي [1]

أظهر لنا ابن هانئ في هذه الأبيات مدى ارتباطه بتلك الديار فعند مروره بها ثارت الشجون وتحركت العواطف والأحاسيس فكل شيء يذكر بالحبيبة حتى الظباء التي ترعى في الديار ينبغي أن تعامل معاملة خاصة بل يتمنى لها السلامة والأمن، لأنها تذكره بحبيبته. وهكذا نجد أن الديار عملت على تأدية ((وظيفة خلق الجو الشعري الذي يمنح الشاعر القدرة على القول، لأنه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الاحساسات ويدور في ذهنه من الأفكار والحوادث)) [2].

وابن هذيل[3] (٣٨٩هـ) ممن بكى على الديار، واستذكر الربع والطلل، فراح في

(١) ديوان ابن هانئ، ٢٦١، الأجرع: رملة مستوية لا تنبت شيئا.
(٢) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، ١٠.
(٣) ابن هذيل: أبو بكر يحيى بن هذيل بن عبد الملك التميمي القرطبي الكفيف ولد سنة (٣٠٥هـ) وكان من أهل العلم والأدب وأخذ عنه الرمادي وتوفي سنة (٣٨٩ هـ). ينظر: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، للحميدي، تحيق: إبراهيم الإبياري، ط٢، ١٩٨٩م، ٦٠٧/٢؛ بغية المتلمس في تاريخ أهل الأندلس للضبي (٥٩٩هـ)، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب

وصفها أيما وصف، داعيا أنه وجد لذلك بوحا لمشاعره وأنفاسه، وما اكتفى بهذا البكاء والصراخ بل راح يطلب عدم اللوم على هذه المشاعر مهما كبرت، وعل ابن حزم أشار إلى ذلك بقوله ((البكاء من علامات المحب ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم عزيز الدمع، هامل الشؤون، تجيبه عينه، وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جمود العين عديم الدمع)) [١] وبناء على هذه المقولة النقدية التي ألمح إليها ابن حزم يكون بكاء ابن هذيل محمودا وطلبه عدم اللوم على هذا البكاء طلبا مشروعا جديرا بالأخذ فلنستمع لبكائه:

لا تلمني على البكاء بدار ... أهلها صيروا السقام ضجيعي
جعلوا لي الوصال سبيلا ... ثم سدوا علي باب الرجوع [٢]

إنها صورة ناطقة رسمت لنا تلك الديار على نحو فني بديع لا يذبع إلا من قبل شعراء ينفعلون ثم يصورون ما جاشت به قرائحهم [٣].

وإلى هذه التجربة ذهب ابن هذيل في نص آخر بقوله:

عرفت بعرف الريح أين تيمموا ... وأين استقل الضاعنون وخيموا
خليلي ردائي إلى جانب الحمى ... فلست إلى غير الحمى أتيمم
أبيت سمير الفرقدين كأنما ... وسادي قتاد أو ضجيعي أرقم
وأحور وسنان الجفون كأنه ... قضيب من الريحان لدن منعم
نظرت إلى أجفانه أول الهوى ... فأيقنت أني لست منهن أسلم

المصري واللبناني، بيروت، ٦٨٣/٢؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ)، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، (د.ت)، ٣٩/٢.

(١) طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ابن حزم الأندلسي، ضبطه بالشكل وفسر غامضه: سعيد محمد عقيل، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٣٤.

(٢) شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي، جمع وتحقيق ودراسة: محمد علي شوابكة، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ط١، ١٩٩٦م، ٩٧.

(٣) ينظر: في الأدب الأندلسي، محمد كامل الفقي، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٥م، ٧٦.

كمـــا أن إبـــراهيم أول مـــرة رأى في الدراري أنه سوف يسقم [1]

إنه ولع شديد بالأحبة اقترن ولعه بذلك المكان الذي سوف يقصده بعد أن عرفه بطيب الريح فالاتصال بالمرأة هو ما يطمح إليه الشاعر فيطلب التوجه إلى جانب الحمى وهذه تجربة صادقة يمكن القول إن الشاعر قد عاشها.

ويطالعنا ابن جاخ[2] بمقطوعة شعرية ذابت في حنايا ها أجمل معاني الغزل متخذا من الأطلال طريقا أو مسلكا لهذا الغزل فقال:

يا ناق عوجي على الأطلال عل بها فهم غريب يراني كيف أبكيها
أو كيف أرفض طيب العيش بعدهم أو كيف أسيل دمعي في مغانيها
إني لأكتم أشواقي وأسترها جهدي ولكن دمع العين يبديها [3]

أما الشريف الطليق [4] (ت قريبا من ٤٠٠هـ) فهو يصف لنا ارتباطه المشيمي بالرياض لما فيها من مشابهة لصفات محبوبته فيرى في الزهر مبسمها أما نكهته فهي ريح الصبا وشاعرنا يمزج بين ذلك المكان الذي تميز بجمال طبيعي وجمال محبوبته فقد ((كانت الطبيعة الأندلسية ملهم الشعراء ومعينا لهم في استنباط صورهم الشعرية من تشبيهات واستعارات وكنايات، وإسباغ لغتهم الواضحة الرقيقة أحيانا والجزلة أحيانا أخرى على هذه الصورة)) [5] حيث يقول:

(١) شعر يحيى بن هذيل القرطبي، ١١٩، القتاد: الشوك، أرقم: الحية.
(٢) ابن جاخ البطليوسي شاعر مشهور توفي قريبا من سنة (٤٠٠هـ) وكان يقصد الملوك بالمدائح ويطيل. ينظر: جذوة المقتبس، ٦٤٠/٢؛ بغية المتلمس، ٧١٨/٢.
(٣) جذوة المقتبس، ٦٤١/٢.
(٤) أبو عبد الله مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر دخل سجن المطبق، لاتهامه بقتل أبيه بسبب جارية رباها أبوه معه ووعد بأن يزوجها إياه ثم استأثر هو بها وأطلق سراحه المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر فلقب بالطليق ومكث في السجن ستة عشر عاما، توفي قريبا من عام (٤٠٠ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٥٤٦/٢-٥٤٧؛ بغية المتلمس، ٦١٣/٢؛ الحلة السيراء، لابن الأبار، تح: حسين مؤنس، ط١، ١٩٦٣م، ٢٢٠/١.
(٥) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، ٢١٤.

ما الروض قد مزجت به أنداؤه سحرا بأطيب من شذا ذكراه
والزهر مبسمه ونكهته الصبا والورد أخضله الندى خداه
فلذلك أولع بالرياض لأنها أبدا تذكرني بمن أهواه [١]

أما الربوع الخالية فقد كان لها نصيب هي الأخرى في شعر الطليق فهذه الأماكن تعكس تجربة يائسة وتؤكد الواقع الحزين، لأنها ذات صلة بالواقع الاجتماعي، فجاءت التجربة لما تحمله من ألم وحرمان، لتعبر عن هموم الشاعر وتأملاته [٢]. فالطليق في هذه الربوع لا يجد غير ذكرياته مع المرأة ولهذا يقول في تلك الأماكن:

ربع تربصت النجوم بأهله ورماهم ريب الزمان فقرطسا
فكأنه مما تقادم عهده ربع امرئ القيس القديم بعسعسا [٣]

فالشريف كان لماحا إلى هذه الأمكنة وكانت تجربته معروفة من حيث الشجن والبكاء، فهي تذكرنا بتلك التجربة التي عاشها الأمير المخلوع والباكي الغريب امرؤ القيس فالشريف وفق في استنطاقه لهذه التجربة من ناحيتين الأولى فنية ثقافية تعود إلى تجربته الأدبية باستيحاء تجربة الشاعر الجاهلي واستنطاقه والأخرى واقعية معاشة عندما جلب كل هذه الأمكنة والأطلال والربوع، لتحاكي تلك التجربة الفنية وتماثلها الدلالي. وقال أيضا:

فبقيت في العرصات وحدي بعدهم حيران بين معاهد ما تعهد
فكأنهن ديار مي إذا خلت وكأنني غيلان فيها ينشد [٤]

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبي سير ودراسات، أميليو غرسيه غومت، ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م، ٧٧.
(٢) ينظر: المرثاة الغزلية، عناد غزوان، مط الزهراء، بغداد، ١٩٧٤م، ٢.
(٣) مع شعراء الأندلس والمتنبي، ٧٩.
(٤) المصدر نفسه، ٨٠.

أما في هذا النص فقد تحول الشاعر في ثقافته ليضع أمامنا حكاية ذي الرمة مع مي [١]، وهنا يبرع الشاعر الأندلسي الطليق في استنطاق الربوع التي جاءت في شعره لمضامين هذه الحكاية التراثية لا سيما في البيت الثاني عندما وصف دياره بأنها ديار مي وأن غيلان دخلها وبدأ ينشد فيها، لأن هذا الأخير لا ينشد كأي منشد إذ هو الخبير بموقع الكلام كما أنه المعروف بتجربته الغرامية التي ظل ينشد لمي وديارها طوال حياته، وعلى أية حال شاعرنا الطليق شاعر مثقف أخذ بأسباب التراث الأدبي ويحسن استخدامه فهو يبكي أطلال امرئ القيس وأحاديث ذي الرمة وهذه عناصر وفرت في شعره إضاءة أدبية تركت أثرها المتميز على شعره كما أن المكان بقي الجامع الوحيد لأطلال امرئ القيس وأحاديث ذي الرمة ولديار الشريف.

إن ذكر الشعراء لهذه الأماكن لم يكن اعتباطا وإنما جاء وفق مطالب ذاتية واجتماعية ((من الناحية الذاتية نرى أن الشاعر قد وجد من الوقوف على الأطلال منطلقا يعبر من خلاله عن تجربته الوجودية في مواجهة الزمان والمكان، ومن ناحية الواقع نرى أن الشاعر يعبر من خلال هذه التجربة عن ارتباطه بقومه وأرضه التي عاش عليها معهم ... وتذكر الأهل والأحباب الضاعنين عنها)) [٢] فعبر الرمادي [٣] (٤٠٣هـ) عن تلك الأماكن بقوله:

وقفت على الديار الخلاء كأنني ... وقفت على قلب من الصبر بلقع
رميت جمار الدمع في موقف النوى ... وقد طفت أسباعا برسم وأربع [٤]

(١) ينظر: ذو الرمة شمولية الرؤية وبراعة التصوير، الدكتور خالد ناجي السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢م، ٢٠.
(٢) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م، ١٣٠.
(٣) أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي، شاعر أهل الأندلس المشهور وسمي بمتنبي الغرب وكان شاعر الحكم المستنصر وهو شاعر مكثر، سريع القول، توفي سنة (٤٠٣ هـ). ينظر ترجمته في: الصلة لابن بشكوال، ٩٦٩/٣؛ المعجب، للمراكشي، وضع حواشيه: خليل عمران، ط١، ١٩٩٨م، ١٩-٢٠.
(٤) شعر الرمادي، جمعه وقدم له: ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ٨٣.

فهو يقف على تلك الدار وقلبه خال من الصبر، ويرمي حار الدموع، لأنها خالية من الأحباب وقوة هذه العلاقة بين الشاعر من جهة والمرأة والمكان من جهة أخرى، متأتية من إقامة الحبيبة وما ترتب عليه أثناء الإقامة من ذكريات أصبحت بعد الرحيل وقودا لعاطفة الشاعر.

فقد فجرت تلك الأماكن الحزن والأسى في قلوب الشعراء فأنشدوا فيها شعرا يفيض عذوبة وجمالا، وراح القسم الآخر يرى في تلك الأماكن ما يطفئ نار الأسى والحزن وهذا ما ذهب إليه الأمير عبد الرحمن بن هشام [1] حيث يقول:

لقد طال صوم الحب عنك فما الذي ... يضرك منه أن تكوني له فطرا
وإني لاستشفي بمري بداركم ... هدوءا واستسقي لساكنها القطرا
وألصق أحشائي ببرد ترابها ... لأطفئ من نار الأسى بكم جمرا [2]

فهو يستشفي بمروره بتلك الدار التي يجد فيها ما لا يجده في غيرها فيلصق أحشاءه الحرى الملتهبة بها عله يجد ببرد ترابها ما يطفئ جمر الحزن والألم.

وعلق الدكتور إبراهيم بيضون على هذه القصيدة بأنها ((تندرج في مصاف القصائد الرقيقة المنسوبة إلى أمراء بني أمية في الأندلس وهي تقترب في سماتها من القصيدة المشرقية المتميزة بقوة الأسلوب ومتانة اللغة التي تبلغ أحيانا حد التقعر)) [3].

فعبر الشعراء عن أحاسيسهم عبر تلك الأماكن تجاه المرأة التي ((شغلت وتشغل

(١) عبد الرحمن بن هشام المستظهر هو أبو المطرف عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بويع بالخلافة سنة (٤١٤ هـ) لقب بالمستظهر وكان مولده سنة (٣٩٢ هـ) دامت خلافته (٤٧) يوما وقتل سنة (٤١٤ هـ). ينظر: جذوة المقتبس ٥٦/١؛ البيان المغرب، ١٣٥/٣؛ الحلة السيراء، ١٢/٢.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٥٦/١؛ وينظر: الحلة السيراء، ١٢/٢.

(٣) الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس دراسة في أدب السلطة، تأليف: الدكتور إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ٢٠٧.

حياة الشاعر في كل عصر من العصور فهي ليست موضع غرامه ومسرح خياله فحسب بل إنها ذات أثر كبير على نفسيته وتصرفاته كما أنها الدافع الأول في إثارة شعوره وعاطفته)) [١].

ويطالعنا ابن دراج القسطلي (٤٢١ هـ) في مقدمة غزلية ضمنها أروع معاني الغزل ووصف الديار وهي مقدمة لقصيدة قيلت في مديح المنصور حيث قال:

أضاء لها فجر النهى فنهاها ... عن الدنف المضني بحر هواها
وظللها صبح جلا ليلة الدجى ... وقد كان يهديها إلى دجاها
ويشفع لي مذها إلى الوصل مفرق ... يهل إليه حليها وحلاها
فيا للشباب الغض أنهج برده ... وبالرياض اللهو جف سفاها
سلام على شرخ الشباب مردد ... وآها لوصل الغانيات وآها
وبالديار اللهو أقوت رسومها ... ومحت مغانيها وصم صداها
وخبر عنها سحق أثلم خاشع ... كهابة بدر بشرت بحباها
فيا حبذا تلك الرسوم وحبذا ... نوافح تهديها إلي صباها
تهادي المها الوحشي في عرصاتها ... يذكرنيه آنسات مهاها
ومبتسم الأحباب في جنباتها ... أقاح كساهن الربيع رباها
دعوت لها سقيا الحياة ودعا الهوى ... وبرح الهوى دمعي لها فسقاها [٢]

من خلال هذه المقدمة الغزلية والتي قرن فيها ابن دراج ذكر المرأة والتغزل بها بأماكن الانتماء (ديار اللهو والرسوم والعرصات)، ثم شوق للمكان هذا الشوق يبين مدى الارتباط النفسي بين ذات الشاعر والمكان فالذات تناجي الديار وتصف لنا المكان بأسلوب حزين وتعلن عن ألمها ولوعة الفراق ولا دواء لهذا الألم غير الدعاء

(١) المطلع التقليدي في القصيدة العربية، ١١٧.
(٢) ديوان ابن دراج القسطلي، حققه وعلق عليه وقدم له: الدكتور محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط١، ١٩٦١م، ١٠-١١، السحق: هو الثوب البالي الخلق، الأثلم: كالأثلب التراب والحجارة.

لتلك الديار بالسقيا، وجاءت هذه القصيدة على قافية الهاء المطلقة، لتوافق غرض الشاعر وعلق الدكتور أحمد هيكل بقوله ((كانت تلك القصيدة مبعث حسد للقسطلي ومثار تشكيك الوشاة فيه فقد خاف كثيرون ممن حول المنصور من شعراء وأدباء أن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطلة على مكانتهم)) (١).

ونلمح هذه الفاعلية للمكان في قول الغزل عند ابن شهيد (٤٢٦هـ) في قوله:

خليلي عوجا بارك الله فيكما ... بدارتها الأولى تحي فناءها
ولا تمنعاني أن أجود بأدمع ... حواها الجوى لما نظرت جواءها
فأقسم ما شمت الغداة وقودها ... وقد شمت ما راب الحمى وأساءها
ميادين أفراس الصبا ومراتع ... رتعت بها حتى ألفت ظباءها
فلم أر أسرابا كأسرابها الدمى ... ولا ذئب مثلي قد رعى ثم شاءها
ولا كضلال كان أهدى لصبوتي ... ليالي يهديني الغرام خباءها
وما هاج هذا الشوق إلا حمائم ... بكيت لها لما سمعت بكاءها
تغن فلا يبعد بذي الأيك عاشق ... بكى بين ليلى فاستحث غناءها
عجبت لنفسي كيف ملكها الهوى ... وكيف استفز الغانيات إباءها (٢)

في هذه الأبيات ابتدأ ابن شهيد بكلمة (خليلي) ونلمح فيها تأثره بالشعراء المشارقة فقد طلب من صاحبيه الإقامة بدارتها الأولى ويطلب منها عدم منعه من البكاء لما رآها وتذكر أيام الصبا وما أثار هذا الشوق إلا نوح الحمام، فيبكي لبكائه لكن هناك فرق بين البكاءين. ثم يتعجب من نفسه كيف امتلكه الهوى بهذه الصورة حتى نسي كل شي، وهام في حبها وحب ديارها.

ويذهب ابن شهيد إلى هذه المعاني في قصيدة أخرى، واصفا فيها الوقوف على

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩م، ٣٠٥.
(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ٨٢-٨٣.

دار الأحبة فتذكر أيام الصبا منشئا علاقة حميمية بين المرأة وذلك المكان، الذي ظل ملجأ لذات الشاعر ينتقي من مكوناته ومفرداته ما يناسبها وجدانيا، ليكون تركيبا شعريا يتلاءم مع نفسه الحزينة يقول:

هاتيك دارهم فقف بمغانها ... تجد الدموع تجد في هملانها
عجنا الركاب بها فهيج وجدنا ... دمن ذعرن السرب من إدمانها
دار عهدت بها الصبا لي دوحة ... اتفيأ الفرحات من أفنانها
أرعى على بقر الأنيس بجوها ... وأحكم الصبوات في غزلانها
وإذا تهادت بالشموس نواعما ... فيها الغصون جنيت من رمانها
قضت النوى بذياد رجح عينهم ... ظلما وكان الدهر من أعوانها
زجروا اغترابا من نعيب غرابهم ... وقضوا ببين من مغرد بانها
فبدا لهم وجه الفراق موقحا ... آت على خبر النوى بعيانها
يقذفن در الدمع في يوم النوى ... عن جمة لعب الأسى بجمانها (١)

حيث ارتبط ابن شهيد بتلك الدار، لإعادة الماضي البعيد، فوقفت الذات عند تلك الأمكنة حزينة متألمة، وجادت العيون بدموع، جسدت ألم الفراق وظلت تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الأحاسيس، وكل هذا يكشف لنا مدى الارتباط النفسي بين الشاعر والمكان.

وخلاصة القول أن المكان بقي لدى شعراء الأندلس مستودعا يلجأ إليه الشعراء في حالة فقدان الحبيبة فكلما مر الشعراء بتلك الديار ألهبت مشاعرهم، وأثارت شجونهم، وحركت أحاسيسهم، فتارة تذكر بالفناء والخراب لما آلت إليه تلك الأماكن، وتارة تذكر بالحب وتمده بالسعادة فهي الرابط الوحيد الباقي بعد فراق الأحبة بل وأصبح طريقا للحديث عن ذكريات الشاعر مع المرأة وكل هذه الشواهد التي مرت بنا نلمس فيها عاطفة صادقة بثتها تلك الذات متفاعلة مع المكان.

(١) ديوان ابن شهيد، ١٦٥.